الحفلة الاكرامية

« خليل افندي مطران »

حُيّيتَ يا وطناً تصبو القلوبُ الى أرجائهِ وبهِ الأرواحُ تغتبطُ
شمسُ المعارفِ في عليـاهُ جامعةٌ أطرافَهُ وهي فيما بينهـا وَسَطُ
فني ذرى « الأرزِ » حبلٌ من اشعّتها يُلقى وحبلٌ على « الاهرام » منبسطُ

ابرهيم البازجي

في الحفلة التي أقامتهـا « مجلة سركيس » في الرابع والعشرين من الشهر الماضي ، احتفالاً بالانعام على خليل افندي مطران بالمجيدي الثالث ، تجلّت هذه « الشمس » بأجلى مظاهرها ، والقت من قرصهـا الذهبي المتقد أشعة الحبّ والوئام والصفاء على مصر وسوريا اللتين كان يمثلهمـا في دار «الجامعة» نخبة الادباء والفضلاء والوجهاء في القطرين الشقيقين .

المحتفَل بهِ رجلٌ عرفهُ عشراؤه بالمروءة ودماثة الخلق وسعة الصدر وعفة اللسان والوفاء للصديق ، فأحبه الجميع . وكأن الشاعر عناه بقوله :

اذا كنتَ من كل الطباع مركّباً　　فأنتَ الى كل القلوب حبيبُ

هذه بعض صفات الرجل ؛ اما الشاعر الذي في بُرْدَي خليل ، فقد عرَفتهُ النفوس خلاّباً ساحراً ، والافئدة محرّكاً مستفزّاً . شهدت له بكلّ ذلك نبضات قلوب قرّائه ، كما شهد له اخوانه في الأدب بقوّة بيانه ، وذكاء جنانه ، فاسمعْ ما قالوا فيه في تلك الحفلة ، وشهادة مثل هؤلاء حجة . قال حافظ بك ابرهيم :

قد سمعنا خليلكم فسمعنا　　شاعراً أقعد النهى وأقاما
وطمعنا في شأوهِ فقعدنا　　وكسرنا من عجزنا الاقلاما
نظمَ الشامَ والعراقَ ومصراً　　سلكُ آياتهِ فكان الإماما
فمشى النثر خاضعاً ومشى الشعـ　　ـرُ وألقى الى الخليل الزماما
فعقدنا له اللواء علينا　　واحتفلنا نزيدُهُ إكراما

وما أبلغ هذه الشهادة اذا جاءت تزكيتها من حفني بك ناصف القائل :

يا شعر مطرانٍ لعبـ　　ـتَ بلبّنا ونفثتَ سحرَكْ
للهِ ما أحلاكَ يا　　سحرَ البيانِ وما أمرّكْ
ان ملتَ يوماً للثنا　　ءِ نثرتَ في الاسماعِ دُرَّكْ
واذا استفزّك عابثٌ　　يوماً كفانا اللهُ شرّكْ
واذا هويتَ خلبتَ مَنْ　　تهواهُ واستنزلتَ بدرَكْ

وقال نقولا افندي رزق الله :

تأمّلْ كرافائيلَ وارسمْ فهذهِ　　أمامَك دنيانا وأنتَ المصوّرُ

صفِ الجوَّ والأفلاكَ والأرضَ والسما وما تُظهِرِ الأيامُ منهـا وتُضمرُ
ترنّم ببيتِ الشعرِ تُنعِشْ نفوسنا فنحنُ ومن في الشرقِ نُصغي ونكبرُ

وقال نعوم بك شقير :

ويبدو كما شاء في شعرهِ فطيرُ الأراكِ وليث الأجمْ
اذا رامَ ذمًّا فجمرُ الغضى وإن رامَ مدحاً فزهرُ الأكَمْ
فقلتُ : أشاعرُ هذا الزمانِ خليلٌ ؟ فقال الزمانُ : نعمْ !

وقال احمد افندي نسيم :

قوافٍ ، لو أنَّ الحسنَ صاغَ حروفها بعقدٍ ، لكانت لؤلؤاً وزبرجدا
ولو سمعتْهـا الطيرُ في وكناتِهـا لقالت هديل الشعرِ عاد وغرّدا
ففي شعرهِ روحُ المهلهلِ تارةً وآونةً روحُ الوليدِ اذا شدا

وقال اسعد افندي داغر :

أمير القوافي الذي صيتُهُ كشمسِ الضحى عمَّ تسيارهُ
فرنّت قصائدُهُ في العراقِ وجابت تهامةَ أشعارُهُ
وفي مصر ديوانُهُ عامرٌ ورهط البلاغةِ نظّارُهُ

كل هذه الشهادات الثمينة سجّلها لمطران استاذُ الشعر في هذا العصر اسماعيل باشا صبري اذ قال :

قلمٌ تصدرُ الحقائقُ عنهُ حاليات في أجملِ الأبرادِ
ولسانٌ يسمي يُدبّرُهُ فكـ رٌ كبيرُ النهى كبيرُ المرادِ

وكان رئيس الحفلة وهلالها الساطع دولة الامير الخطير البرنس محمد علي باشا شقيق مليك مصر، فجاءت شهادته لوحدها جامعةً لشهادة الادباء

والاصدقاء ، والشعراء والقرّاء، فقال من خطبته النفيسة :

« ولقد سمعتُ منذ زمانٍ طويل بشهرة ذلك الشاعر الطائر الصيت ، فابتهجتُ بما وصل اليّ من أفكاره السديدة التي تنبئ عما هو عليهِ من علوٍّ في الهمة ، وثبات في الرأي ، ووفور في العلم . ولم يكن إعجابي بهِ لما أوتيهِ من المواهب الجليلة في دولة العلم فقط ، بل لما تحلّى بهِ ايضاً من الأخلاق الكريمة التي تحمله دائماً على سلوك طريق الاستقامة ، وتباعد بينه وبين التحقير للغير ، حتى صار بذلك محبوباً مرموقاً بعين الاجلال والاعتبار ، متأهباً لنيل المجد والفخار . . »

ولستُ أدّعي ان اقدّم لقراء « الزهور » في بضع صفحات كل ما قيل في هذه الحفلة النادرة وقد كلّف سركيس جمعهُ مئة وستين صفحة من مجلتهِ ، ولا أن أصف في سطور قلائل ما شهدتُ ورأيت في دار الجامعة وقد تقصر عن ذلك الصفحات الطوال . غير انه لا يسعني الاّ ان أخصّ بالذكرِ اخواننا أُدباء لبنان وسوريا ، فانهم أحبوا اغتنام هذه الفرصة لاحكام الروابط الادبية المتينة التي تربط الامتين، فأوفدوا أديبهم الكبير وشاعرهم البليغ شبلي بك ملاّط ليمثلهم في هـذه الحفلة ، فقام بمهمتهِ خير قيام ، وأنشد قصيدةً عصماء اهتزّ لها السامعون طرباً ، كما يحقّ لموفديهِ ان يهتزّوا لها عجباً ، وقد اكرمت مصر في شخصهِ الكريم ادباء سورية فاطبة، فاحتفى بهِ امراؤها وسراتها وأعيانها وأدباؤها ، وعن اكرام المصريين للضيوف الادباء حدّث ولا حرج . . . .

أعود الى الحفلة فأقول : وقد أراد فريقٌ من اصدقاء خليل مطران

والمعجَبين بهِ ان يقدّموا له شيئاً غير الشعر الثمين والنثر الغالي ؛ فأهدت اليهِ السيدة النبيلة مدام تقلا باشا والدة صاحب « الاهرام » ديوانه مجلداً في غلافٍ نفيس من الفضة المحلاّة بالذهب فكانت الهدية غايةً في الذوق اللطيف ، وأهدى اليهِ سعادة عبدالله باشا صفير قلماً ذهبياً ، رمزاً الى التبر الذي يسيل من قلم الشاعر ، وقدّم اليهِ عزتلو حبيب بك لطف الله النيشان المجيدي المنعم عليهِ بهِ . وحمل اليه مندوب سوريا من سعادة سليم بك ايوب ثابت ساعةً ذهبية جميلة . وأهدت اليه السيدة الفاضلة لبيبه هاشم صاحبة مجلة « فتاة الشرق » أبياتاً من الشعر في اطار جميل كتبتها بخطها الظريف

وقدّمت له الكاتبة الشهيرة الآنسة مي باقةً جميلة — في شكل خطبة غراء — جمعت ازهارها من رياض الخيال ، ورياحينها من حدائق الشعور ، فعطّر شذاها الارجاء وأنعش الارواح

هذا بعض ما جمعتُه لقرائي عن تلك الحفلة التي تحدّثت بها أنديتنا ومجتمعاتنا الأدبية كل هذه الأيام

اما صديقي سليم سركيس فكل ثناءٍ عليهِ يظلُّ دون همته وتفانيه وكفاه بنجاح فكرته مدحاً وتقريظاً . ولئن كان « الخليل » اهلاً لكل ثناءٍ قيل فيه فان « السليم » الذي كان « زنبلك » كل هذه الحركة يستحقّ ايضاً حظاً وافراً من الثناء . وقد بتنا نتوقع له نصيباً من انعامات أمير النيل لنعقدَ له حفلة لم ترَها عين ، ولم تسمع بها اذن ، ولا خطرت على قلب بشر

عصا حافظ وجزمة الشميّل

حافظ ابرهيم وخليل مطران يشتغلان الآن معاً بترجمة كتاب «علم الاقتصاد» للكاتب الفرنسوي « ليروى – بوليو » ؛ فتراهما يروحان ويجيئان بين المكتبة والمطبعة ، ويبحثان وينقّبان عن لفظةٍ عربية تؤدّي معنى الاصطلاحات الافرنجية . وليس ذلك دائماً بالأمر السهل ؛ وسأعود الى زيادة التفصيل عن هذه المسألة في جزءٍ آتٍ . ولم أذكر اليوم كتاب « علم الاقتصاد » إلاّ عَرَضاً فقط ، لأنهُ جمعني في ٦ ابريل الماضي بأحد نصفي المعرّب حافظ بك ابرهيم ، فلمحتُ في يدهِ عصا عليها شارةٌ نُقِشَ فيها تاريخ إهدائها اليهِ ، فاذا هو « ٦ ابريل ١٩٠٧ » . اتفاقٌ غريب ! وأغربُ منهُ ان تلك العصا قد رافقت « حافظاً » ستةَ أعوامٍ كاملة ، سلمت فيها من البيع والرهن والسرقة

عجباً له حفظ العنانَ بأنملٍ ما حفظُها الاشياء من عاداتها

ولعلّي أدركتُ السرَّ في بقائها ، فهو يهشُّ بها على غنمهِ ولهُ بها مآرب أُخرى : فبها يضربُ القوافي فتنفجرُ لهُ سحراً حلالاً ، كما كان موسى يضربُ بعصاهُ الصخرَ فيتفجرُ لهُ ماء زلالاً . أو لعلَّ « عصا حافظ » لها منزلة من نفسهِ كمنزلة « جزمة » الدكتور شميّل ، وقد أودعها كلّ ضروب الفلسفة

وحكاية هذه « الجزمة » انني زرتُ يوماً الدكتور الحكيم برفقة رهطٍ من الادباء ، فوجدناه في غرفة عيادتهِ جالساً الى مكتبهِ ، وهو في ملابس البيت ؛ فحادثنا وحادثناهُ مدةً ؛ ثم اشتدَّ الجدالُ على مسألةٍ من المسائل ، فقال الحكيم هازلاً «دعوني أشدّ جزمتي ، فأكون أقوى حجةً ، وأكثر استعداداً للمناقشة» قال ، ونهض الى مخدعهِ ، وعاد على تمام الأهبة بعد أن «شدَّ جزمتهُ» ، فقلتُ له : « قد أدركتُ سرَّك يا حكيم ، وعرفتُ مواطن الضعف فيك ، فانَّ منزلة هذه «الجزمة»

منك منزلة شعر شمشون منهُ » فضحك الشميّل ضحكتهُ المعتادة ، فزدتُ جرأةً وقلت : « متى اشتدَّ تقريعك لنا في « جلسات سبلندد بار » سنعمد الى جزمتك ، وننزعها من رجليك ، فندعك أعزل بلا سلاح . . . »

أما وقد عرف القرَّاء سرَّ حافظ والشميّل ، فلينزعوا من الأوَّل عصاه ، وليسلخوا من الثاني جزمتهُ ، اذا أرادوا ان يستريحوا من فلسفة هذا وشعر ذاك . على انني أخشى ، وقد بحتُ بالسرّ ، ان يتحوَّل القراء الى جزمجية وحطّابين ، حتى يتمتعوا طويلاً بذلك الشعر الرّيق ، والنثر الشيّق ماصر

من كل حديقة زهرة

* ابتدع أحد الاطباء الاميركان طريقةً لخدمة المرضى ، وهي أنه ربَّى كثيراً من الحمام الزاجل وجعل أوكار هذا الحمام الى جانب صيدليته . فاذا ما دُعي لمعالجة مريض ، حمل معه بعض الحمام فيكتب الوصفة ، ويعلّقها بعنق الحمامة ، ثم يُطلقها الى الصيدلية ، فيتناول الصيدلي الوصفة ، ويركّبها ، ويرسلها الى المريض مع راكب درَّاجة

* دعا مدير سجن سنت كوانتن في سان فرنسيسكو الممثلة ساره برنار لتمثل أمام ١٩٠٠ سجين في ملعبٍ أقامه في فناء السجن . وبعد التمثيل ناط المسجونون بواحدٍ منهم تلاوة خطابٍ باسمهم وجّهوه الى الممثلة الشهيرة

وحدث في سجن ريفرهرد ان سجينةً شكت مدير السجن لانه يعاملها معاملة سيئة . فاظهر التحقيق أن السجّانين يُقيمون حفلات رقص وغناء داخل السجن للنساء والرجال ، فالسجّانون ومديرهم كانوا يفضّلون الرقص مع الفتيات الاصغر عمرًا من الشاكية التي أربى عمرها على الخامسة والاربعين

* وأنشأ الاميركان في نيويوك سجناً للازواج المطلّقين الذين يأبون دفع النفقة لنسائهم جعلوه نادياً يلعب فيه المسجونون ويأكلون ويستحمون ويتعاملون كأنهم في أحد لاندية . وقد دلّ احصاء السجون الاميركية وميزانيتها على ان هذه الحكومة تُنفق على السجين من هولاء في كل عام ١٨٥٠٠ فرنك

* يعرفُ علماء الفراسة أخلاقَ الانسانِ من أسرّةِ وجهه وتقاطيع رأسه . ويعرفُ فريقٌ منهم هذه الاخلاق والاميال والاهواء في الانسان من خطوط يدهِ . وقد ظهر في اوروبا مذهبٌ جديدٌ ، وهو ان الانسان يُعرَفُ من تركيب رجلَيهِ وقدميهِ. واصحاب هـذا المذهب يقولون « الرِّجلُ هي الرَّجلُ » واشتهرت الكونتس دي روشفو كولد في ذلك والفت في هذا الفن كتاباً

* سنّت ولاية ايلينوا الاميركية قانوناً للصحافة يقضي بألاّ يُسمح لاحدٍ بتعاطي الحرفة الصحافية في تلك الولاية دون أن يكون حاملاً الشهادة بذلك بعد أن يقضي أربع سنين في تلقي هذا الفن . ولا يعطى الشهادة الا اذا امتُحِنَ امامَ لجنةٍ تثبّتُ قدرتهُ وأدبهُ وطيب أخلاقهِ . ومن راسل جريدةً دون أن يكون حاملاً الشهادة يغرَّم من دولار الى خمسة دولارات وتغرَّم بمثل ذلك الجريدة نفسها

* سئل كثيرون من كبار الفرنسويين رأيهما في تخويل المرأة حق الانتخاب كالرجل ؛ فكانت الغالبية من المنكرين على المرأة هذا الحق . ولكنّ فريقاً منهم استثنى من ذلك المرأة التي لا يمثّل عائلتها أحدٌ في الانتخاب . فهذه تخوّلُ حقّ الانتخاب . أما المتزوجة فيرى ان زوجها ينوب عنها

* في أمثال الصينيين في الزواج « ان الزواج قلعـةٌ محاصَرة : من كان خارجاً عنها ، يودُّ الدخول اليها ؛ ومن كان فيها ، يودُّ الخروج منها »